صابر زايد

«علمتنى الحياة أن أصنع أى شىء، وأن يدى قادرتان على صناعة كل شىء أحتاجه، فأصبحت محترفا متخصصا فى صناعة آلات الطباعة والعمل عليها وإخفاء كل شىء بمهارة».
صابر زايد

إسكندرانى أصيل، من أسرة فقيرة تعمل فى تجارة الورق، لكن الرزق شحيح ولا يملك صابر ترف الاستمرار فى التعلم، فيصبح عامل نسيج فى مصنع بولفارا وفى مطلع الأربعينيات يصبح عضوا فى الحركة المصرية للتحرر الوطنى، وعبر عام أو عامين يصبح قائدا نقابيا فى المصنع، ومن ثم يصبح قياديا فى فرع الإسكندرية من «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال»، ويلتهب حماسا مع المظاهرات الصاخبة وتلتهب به المظاهرات حماسا، وفى ٤ مارس ١٩٤٦، يوم الإسكندرية العظيم، يكون أحد القادة البارزين.. ويتواصل فى النضال حتى إعلان الأحكام العرفية فى ١٥ مايو ١٩٤٨ ليكون من أوائل المعتقلين ويتنقل من معتقل لآخر إلى أن يفرج عنه ١٩٥٠ مع إلغاء الأحكام العرفية، وفى ١٩٥١ وإذ يلتهب الكفاح المسلح فى القناة يشكل مع رفاقه كتيبة للمقاومة المسلحة وتقدم الكتيبة أول شهيد يسارى فى معارك القنال الشهيد «عباس الأعصر»، وتحترق القاهرة فى ١٩٥٢ ومرة أخرى الأحكام العرفية، ومرة أخرى إلى المعتقل، ثم تأتى ثورة يوليو فيفرج عنه ليواصل ذات الطريق، ومع أول صدام مع ضباط يوليو، يعتقل أيضا، وهذه المرة إلى سجن روض الفرج، ويقول صابر فى حواره معى: «فى ذات ليلة وأنا فى المعتقل تأملت شريط حياتى وقلت ها أنا فى كل مرة يقبض علىّ كالفرخة، وقلت ثلاث مرات تكفى ولن يقبض علىّ أبدا بعد ذلك».

كان معه فى المعتقل عديد من الرفاق منهم حمدى عبدالجواد، ضياء الدين بدر، حليم طوسون وآخرون، تأمل شبابيك ومخارج السجن وجلس هو وحليم طوسون يخططان دون

أن يعلم أحد لعملية عرفت باسم «الهروب الكبير» ويمضى صابر قائلا: «العملية نظريا سهلة صفيحة منشار تقطع المسامير التى تثبت حديد الشباك، الحديد عبارة عن برواز ضخم لو نجحنا فى خلعه ثم ينام على سور السجن ثم نثبت فيه ملايات السراير ليهبط عليها الهاربون، وتبقى مشكلتان: كيف يتم تهريب صفيحة المنشار؟ والثانية كيف يتم استبعاد جندى الحراسة القابع فوق سور المعتقل والآخر القابع أسفل السور؟»، تكفل صابر بحل المشكلة الأولى فقد كان معتقلا معهم النبيل عباس حليم وكان النبيل قد حاول منذ أمد أن يصبح قائدا للعمال، ومن هذه الزاوية اصطاد العامل الماكر النبيل الساذج ورتب معه أن ندخل صفيحة المنشار داخل رغيف فينو طويل يأتى ضمن الطعام الفاخر الذى يحصل عليه النبيل يوميا، أما مشكلة الحارس على السور فقد حلها حليم بعد أن استخدم عشرات من البيض الفاسد برائحته الكريهة لإلقائها فى كل ليلة خارج السور بحيث لا يطيق الجندى أعلى السور البقاء فى مكانه، أما أسفل السور فقد كانت هناك لمبة تتدلى من الشباك لتضىء للجنود هذا الممر، واستحضر حليم لمبة كبيرة جدا وقوية جدا بحيث لا يمكن للجندى أن يرفع بصره إليها ومن ثم يمكن الهروب دون أن يرٰاهم أحد، وتمت خطة الهروب الكبير سبعة من أهم الكوادر أفلتوا من المعتقل الناصرى وثار عبدالناصر وأمر بحملات قبض جديدة.

أما صابر زايد فقد صمم على شعاره «ثلاث مرات تكفى»، وخاض رحلة هروب أسطورية لمحترف ثورى يتولى مسئولية طباعة كل مطبوعات التنظيم، يهرب، يعمل ليكسب ما يكفيه هو وأسرته وما يكفى لصناعة آلات الطباعة التى علم نفسه كيف يصنعها بيديه وما يكفى لشراء الأوراق والأحبار وكل تكاليف الاتصال، فقط هم يرسلون له المطلوب طباعته وهو يعيده إليهم مطبوعا بكميات كافية، علم نفسه الكتابة على الآلة الكاتبة واخترع آلات رونيو مبسطة وشاركه فى ذلك المهندس سمير توفيق وكان مسئول الاتصال به.

ثم صنعا معا آلة طباعة، واشترى صابر الحروف وعلم نفسه كيف يصفها وكيف يصدر مطبوعات سرية غاية فى الأناقة، ست سنوات ونصف السنة من أبريل ١٩٥٣ إلى ديسمبر ١٩٥٩ قضاها صابر متنقلا هو وأسرته من قرية لقرية ومن مدينة لمدينة، فى سمنود فتح محل سمكرى بلدى وعاش هو وزوجته وأولاده يكسب ويصرف عليهم، وعلى ابنه الأكثر أهمية، وهو جهاز الطباعة، ثم انتقل لقرية أخرى وثالثة ليعمل نجارا، ثم إلى

الزقازيق ليستأجر منزلا من طابقين ولأن إخوته تجار ورق فى الإسكندرية فقد اتخذ مهنة تجارة الورق غطاء له، وكانت سيارة النقل تحضر محملة بكميات ورق كبيرة يتم تفريغها ليتم إعادة كثير منها فى ذات السيارة بعد احتجاز جزء للطباعة وجزء للبيع.

وتحمل السيارة المغادرة المطبوعات الحزبية. وأسأله: كم مرة انتقلت بأسرتك ومطبعتك؟ فسرح طويلا.. وقال: «كثير.. سمنود - ميت غمر - شبين الكوم - المحلة - السنبلاوين - طنطا - كفر الزيات - بنى سويف - الواسطى - أسيوط - الزقازيق، أنا أقرر وأنتقل وأتصل بالرفاق ولا أحد يعرف مكانى على الإطلاق، مرة واحدة استدعيت، كان العدوان الثلاثى يحتل بورسعيد والمطلوب مطبعة وكادر يعرف كيف يعمل عليها»، تسلل وطبع الانتصار، وعندما خرج العدوان ظهر الهاربون جميعا إلا هو، فهو لم يعد يثق فى هذا الحليف المتقلب، فمن بورسعيد المحررة تسلل بمطبعته إلى مكان جديد، وفى ١٩٥٩ يقبض عليه. جرحه وكبرياؤه يؤكدان فى كل لقاء «لست المسئول عن القبض على ولكن مسئول الاتصال أخطأ». وفى السجن تتفجر مواهب جديدة، من عيدان الكبريت يصنع تماثيل جميلة ومن لباب العيش يصنع قطع شطرنج ومنازل وعرائس غاية فى الرقة والجمال.

وعندما يتأسس التجمع يأتى صابر زايد محملا بأعباء أعوام الهروب والزمان والشيخوخة والأولاد الذين كبروا بلا أصدقاء ولمعارف ولا أقارب.. ويبقى معنا حتى يرحل.